الفصل الثالث

المجالات التركّز عليها المستشرقون في دراسة التاريخ الإسلامي الوسيط

إشكالية الدافع الواحد أو الدوافع المشتركة للمستشرقين

لقد تطرّق البحث السابق ضمن الإشكالية الأولى المتعلقة بإشكالية المصطلح، وكذلك في الإشكالية الثانية الموسومة بـ إشكالية الإنتماء الديني والهويّة القومية وأيضا ضمن الإشكالية الأخرى الموسومـة بـ بالإشكالية الفكرية والآيدلوجية، إلى أن العرب والمسلمين المهتّمين منهم بحقل الإستشراق وغير المهتمين قد أسّسوا العلاقة مع المستشرقين وحركة الإستشراق على وفق صيغة أو موقف ينطوي على الكثير من الخوف والخشية والشكّ في أهداف المستشرقين والحذر من نواياهم الدفينة غير المعلنة. مع أن هؤلاء قد أكّدوا وبحثوا في مسائل كثيرة جداً عن الإسلام وعن سيرة رسول الله وأئمة أهل البيت وعن التاريخ الإسلامي ولاسيما عن الحضارة الإسلامية. ولكن على الرغم مما في هذه الدراسات التي بذلوها من جدّية وكدّ يبقى السؤال ماثلاً ألا وهو هل أنهم قد أفنوا حياتهم في تعلم اللغة العربية واللغات الشرقية في سبيل البحث والدراسة العلمية أو بسبب حبّ الإطّلاع على ثقافات غير ثقافاتهم فقط؟ أم أن بعضهم أو أكثرهم قد توجّه إلى هذه التخصصات بعامل أو بعوامل معينة ومجتمعة نحو ذلك؟ دون أن نغمط حقيقة مفادها: - ليس جميع المؤرخين الغربيين أو الأمريكيين أو الإسرائيليين قد اندّفعوا ببساطة إلى هذه الدراسات بدافع محدّد وخاصّ وبيّن.

فالملاحظ أن هذه العلاقة الجدلية بين اندفاع المستشرقين بمثل هذه الحماسة والجدّية نحو الدراسات الإسلامية وبين العوامل المشجّعة والداعمة لها قد ابتدأ بشكل سافر وواضح متمثلا بالإجراءات والأعمال التي مارسها المستعمرون، وهي ممارسات كانت في الواقع أعمالا وحشية وتخريبية عن طريق تدخّلاتهم وغزوهم العسكري وكذلك عن طريق رسم مخططات ومشاريع توسعية تظهر بجلاء نواياهم في تغيير خرائط العالم والشرق الأوسط خاصة ورسم خرائط بديلة للأديان أو الحضارات أوالسياسات. والأكثر خطورة أن كلّ قوة أوربية أو أمريكية أو غيرها من القوى الإستعمارية المتصالحة أو المتصارعة أو المتحالفة قد هيأت لنفسها خارطة تجّسد أمالها في المنطقة ومصالحها السياسية والإستراتيجية من جهة وفي ضرب الإسلام والحضارة الإسلامية من جهة ثانية وفي حلب ثروات المنطقة والأراضي العربية

الإسلامية ولا سيما بعد أن تأججت أهمية الثروة النفطية والمعدنية والعسكرية من الجهة الثالثة. من هنا أخذت مشاعر العرب والمسلمين، وهي مشوبة بمثل هذه الأفكار والمشاعر وممارسات المستعمرين، أتجاهاً سلبياً وفي كثير من الأحايين سلبية بشكل متطرّف؛ وجميع ذلك حقّ لهم فالأرض المسلوبة والمخرّبة والمستثمرة استثمارا كبيرا هي أرضهم وبلادهم، والدين الذي يتعرض باستمرار إلى تشويه ومحاربة بل وسخرية وهو الإسلام هو دينهم؛ فتلك هي أرض العرب والمسلمين تاريخياً وهذا هو دينهم وحضارتهم تاريخياً أيضاً.

فالإستعمار البريطاني مثلاً قد هيّمن على منطقة واسعة وغنية من الشرق الأوسط والإستعمار الفرنسي كذلك بسط نفوذه وسطوته الواسعة على أراضي شمال أفريقيا وسوريا وغيرها من المناطق. فولّد هذا الإستعمار ردَّ فعل عارم في نفوس وضمائر الوطنيين من العرب والمسلمين ثم تبلّور هذا الفعل إلى حركات سياسية مناهضة وإلى أعمال تثوير لكل ما يتضمّنه الشعور القومي العربي أو الإيراني أو التركي أو إلى غير ذلك. ويهدف هذا التثوير إلى رصّ الصفوف المنتمية إلى هذه القومية أو تلك لمواجهة الغزو الأجنبي والتدخلات العسكرية الأجنبية. وكذا الحال في ردّ فعل حضاري متمثل بنهضة ثقافية وفكرية للإعلان عن مساوىء الإستعمار والإعلان عن توعية الناس سياسياً وكيفية الردّ الناشز ضدّ المستوردات الفكرية والثقافية الأجنبية. لهذا فإن المرحوم محمد كرد علي في العقد الأول من القرن العشرين نظر من زاوية تفكيره إلى مساعي المستشرقين في دراساتهم للحضارة الإسلامية نظرة إيجابية بالشكل الذي فسّر بالإعجاب الكبير بما قام به المستشرق في مجالات تحقيق لتراثنا الإسلامي؛ فأدّى هذا الفهم الإيجابي إلى ثورة مضادة قادها مفكرون ومثقفون رأوا في الإستشراق وفي أعمال المستشرقين أستعماراً أيضاً. إنه استعمار ثقافي وتبشير ودسّ وطعن وتفسير حاقد للإسلام ومبادئه ونبيه. وهكذا انقسم الشارع الثقافي في مصر أو في بلدان عربية وإسلامية أخرى على قسمين وفي أحسن الأحوال على ثلاثة أصناف سلبي وإيجابي وبين بين أي وسط بين هذا و ذاك من المواقف والإتجاهات. فهناك مثقفون امتدحوا أعمال المستشرقين في التحقيقات والدراسات التاريخية والحضارية، والمعتقد بأن لهؤلاء الدور في الترحيب بعدّد من المستشرقين ليكونوا أعضاء فاعلين في المؤسسات الثقافية العربية ومن أهمها في المجامع العلمية العربية في دمشق والقاهرة وبغداد. .. الخ. وهناك من اتهم هذه الدراسات والإسهامات بالإستعمارية والمسيئة والمغرضة..

وهناك من ميّز بين الدراسات المسيئة وبين تلك التي تمثل معرفة إيجابية لتراث أمتنا. ولذلك فهناك مستشرقون مسيئون وآخرون منصفون وعادلون في رؤاهم وتفسيراتهم.

ومع وجود هذه الثنائية الثقافية العربية إزاء أعمال المستشرقين لم تخلُ من غموض وعدم وضوح في الموقف وأحياناً من تناقض في المعادلة التي طبّقت بين شرائط من يوصف من المستشرقين بالتعصب والتحامل على الإسلام ونبيه وبين التبشير الذي يهدف إلى الطعن في الدين والتراث وبين طرف المعادلة الآخر وهو المستشرق الذي وصف بأنه مستشرق منصف ومعتدل في آرائه وتفسيراته للإسلام الحنيف ولسيرة رسول الأمة.

هكذا بدأت مواقف العرب المسلمين ومشاعرهم إزاء المستشرقين وظلّت مستمرة كذلك. وبقيت الهوّة والشقّة بين الطرفين تتسع وتضيق تبعاً للظروف السياسية بالدرجة الأولى بينما ظل الموقف الوسط يتراوح بين المدِّ والجزر مرتبطاً بالموقف نفسه. فمثلاً اشتّد الموقف ضدّ المستشرقين بظهور آراء منسجمة مع تفسيرات الكنيسة وكتّاب العصور الوسطى كالذي ظهر في الرسوم الكاريكتيرية في كوبنهاكن ولندن وباريس، وكالذي حدث في ظهور أفلام سينمائية بهذا المعنى أو بظهور تعليقات من بعض المسؤولين كالبابا بندكت السادس عشر أو عضو النواب ووزير في هولندا أو في الإعلام الواسع الإنتشار في أمريكا متمثلاً بالعنوان الذي جسّمه الرئيس بوش الابن في الحرب ضد الإسلام (بما يعادل في رأيه الإرهاب) بالحروب الصليبية الخامسة وبالمواقف السلبية جداً من الجمهورية الإسلامية في إيران وحزب الله في لبنان وأي اتجاه وتوجّه إسلامي في أي مكان آخر من العالم العربي والإسلامي.

علماً بأن المجامع العلمية ـ كما أشرنا آنفا ـ وهي من أرفع المؤسسات الفكرية والعلمية في مختلف البلدان العربية قد زيّنت هيآتها العلمية بأسماء عدد من المستشرقين الفرنسيين والإيطاليين والألمان. وهي حال لا تشابه قطعاً موقف المقاطعة الفكرية ضدّ المستشرقين المبيّن في الفقرة المشار إليها آنفاً. كل ذلك حدا بنا على أن نطلق على هذه المفارقات في المواقف والإتجاهات بالإشكالية بخصوص الدافع الحقيقي الواحدي أو مجمل الدوافع المشتركة التي دفعت المستشرقين إلى الجدّ والمثابرة في التحصيل التاريخي والحضاري للإسلام وإلى الحرص في المتابعة في تعلّم اللغات الشرقية والعربية منها على وجه التحديد وإلى قراءة وبحث التاريخ

الإسلامي وإلى بذل المزيد من الجهد والصبر والعناء في سبيل أستكمال مهماتهم العلمية.

إذن فارتباط الإستشراق وعلاقة المستشرقين بالإستعمار وسياسات بلدانهم من جهة وفي تمثيل بعضهم للدوائر الإستخباراتية والسياسية من جهة ثانية وتصريحات البعض الآخر منهم فضلاً عن تصريحات المسؤولين الكبار في الدوائر السياسية الإستعمارية من جهة ثالثة قد حفّز الى سيادة نظرية المؤامرة الثقافية وعلى العمل على صناعة قوائم سوداء بأسماء المستشرقين المسيئين وقوائم بيضاء بأسماء المستشرقين المنصفين.لهذا كان الموضوع بالنسبة إلى البروفسور أدوارد سعيد الفلسطيني المولد والأصل والأمريكي الجنسية والإقامة وربما العمل والثقافة من هذه الجدلية الثنائية للمستشرقين والإستعمار واضحة جداً.فقد صبّ جام غضبه، وهو على حقّ، بأسلوب أدبي رائع على الإستعمار البريطاني لأنه المحفّز الأساس لظهور الإستشراق البريطاني ممثّلاً بالمستشرقين بوكوك وبريدو وسيل وغيرهم.وموقف ورؤية البروفسور سعيد متأثر بجلاء بما مارسته السياسة البريطانية ضدّ شعبه ووطنه فلسطين، عندما تآمرت في وضع ورسم خارطة لصالح الكيان الصهيوني. إذن ليس من المبالغة أن نختزل نوازع وأهداف الحركة الإستشراقية بنازع واحد أو دافع واحد أو دافعين أو ثلاثة..وهكذا. فالمستشرقون حينما عقدوا مؤتمرهم الأول في باريس عام ١٨٧٣ لم يكونوا من شريحة واحدة أو من مذهب ديني أو سياسي واحد بل جمع هذا المؤتمر العلماء الأوربيين وغيرهم ممّن أولوا التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية اهتماما ملحوظاً سواء كان منهم المدفوع بدافع تبشيري أو الآخر المهتم بدافع حبّ الإستطلاع أو الثالث المدفوع بحبّه واهتمامه بتاريخ الشرق أو تاريخ العرب والمسلمين وهكذا.

كذلك علينا عدم تجاهل موضوع مهم جداً كان مدار النقاش والجدال بين جموع المستشرقين ألا وهو الوسائل التي بإمكانهم أن يفلحوا فيها أو أن يسهل عليهم الأمر بواساطتها التعرف على الشرق عموماً، وأعني هنا المصادر الخاصة بالشرق. إذ لاشك في وجود أبحاث عن مخطوطات نادرة من الضروري تحقيقها، أو تشخيص ميادين أخرى غير الميدان الديني والسياسي كمحاولتهم التعرف على مدى اهتمام المسلمين بالعلم والتعلم وفيما إذا كانت العلوم الإسلامية علوماً مستقلة عن العلوم التي تمّ إنجازها في الحضارات الإنسانية الأخرى كالحضارة اليونانية والرومانية؟ أم أنها علوم قلّدت أو حاكت عبر ترجمة شاملة لمؤلفات أرسطو وأفلاطون وجالينوس وغيرهم من

علماء الإنسانية القدامى؟ أم أن علماء المسلمين حاولوا ونجحوا أم فشلوا في إجراء عملية تلاقح حضاري بين العلوم في الحضارات الإنسانية العالمية وبين ما جاء به الإسلام ممارسة وعملاً؟. كذلك مما لا شكّ فيه أنهم عرضوا بحوثاً عن السمات الأساس للحضارة الإسلامية في الفقه والشريعة والقانون والسياسة المدنية وشخّصوا المؤلفات المهمة في هذه الموضوعات وأتجهوا لدراستها أو رشحوا المهم منها تحقيقها. في الوقت نفسه لابدّ من أنهم تعرّضوا لمسائل العقل والكلام ومدى مساهمة العلماء المسلمين بالفلسفة والمنطق والكلام وفيما إذا كان فلاسفة الإسلام مبدعين وأصيلين في رؤاهم وتفسيراتهم العقلية وهم يعتمدون الأصل الإسلامي الأساس للقرآن الكريم؟ أم أنهم أعادوا حرفياً مواقف أرسطو وأفلاطون وأفلوطين في صفات الله تعالى وفي واجب الوجوب وفي الجوهر وفي الذرّة وفي خلق الإنسان والوجود؟. هذه جميعاً وغيرها واضح ومعروف لا حاجة إلى ذكره وإعادته. وكانت بالتأكيد من الأمور التي ناقشها المؤتمرون وتعرّضوا لها وتوصّلوا إلى نتائج علمية نظرية ومدوّنة عبر مئة مؤتمر وعبر قرن من الزمان.ولا يعقل أبداً أنهم في هذه المؤتمرات وفي نتائجها المتعلقة بمؤلفاتهم وتصنيفاتهم وتحقيقاتهم كانوا مهتمين بالجانب التبشيري وحده أو الجانب الإستعماري وحده دون غيره. لهذا فإن إندفاعهم لدراسة التشيّع وأهل البيت سواء تلك الدراسات التي أختصت بأبي أهل البيت الرسول الكريم وأئمة أهل البيت يقع ضمن هذا التصوّر في بدايات اهتمامات المستشرقين، وهو دون شكّ، قد خضع لمؤثرات ودوافع عدّة مسايرة للدوافع والنوازع التي دفعت المستشرقين عموماً إلى أن يكرّسوا دراساتهم ونشاطاتهم وأن يبذلوا الجهود المضنية لمتابعة المنابع التي يستقون منها معلوماتهم فهذا هو المستشرق البريطاني دونالدسون المبشّر الذي قضى سنيناً من حياته العلمية ليؤلف أطروحة دكتوراه بعنوان العقيدة الشيعية في إيران والعراق. فهل أندفع بدافع تبشيري فقط؟ قد يكون الجواب كذلك ولكنه قد قدّم خدمة كبيرة للقارىء الشيعي وغير الشيعي العربي والمسلم عن المنابع الأساس في التدوين والكتابة عن التشيّع في أوائل سنة ١٩٣٠ في الوقت الذي لم يظهر عالم شيعي أو مسلم يتناول هذا الموضوع بأسلوب وصفي تارة وتحليلي تارة أخرى معتمداً في الأساس على المؤلفات الشيعية الأربعة وغيرها مما لم يكن مسموحاً به في العالم الإسلامي غير الشيعي التطرّق إليها أو بالأحرى ذكرها. والمستشرق دونالدسون قد أثار جانباً مهماً في دراسة التشيّع ألا وهو نقده الرواية السنية المألوفة التي جانبت الحقيقة في أصل التشيّع عقيدة وحركة سياسية كالذي جاءت عند ابن حزم الظاهري مثلاً. ولم

يعتمد على روايات محمد بن سعد وابن إسحق وابن هشام وابن حزم الأندلسي عند كتابته عن أحداث سقيفة بني ساعدة، وبالصيغة المألوفة إنّما تابع المرويات عن مواقف بني هاشم وعلى رأسهم موقف الأمام علي من الأسلوب الذي تمّت فيه البيعة إلى خلافة رسول الله.

حقيقة أن المستشرقين عموماً، عدا أولئك الذين سيرت مؤلفاتهم منذ البداية نوازع دينية حاقدة تبشيرية وغير تبشيرية، كالموقف الذي وقفه المبشر لامانس من أهل البيت عموماً بدءاً برسول الله ومروراً بالأمام علي وفاطمة الزهراء وبنوها ذلك الموقف والطاعن، فلامانس في هذا الموقف لم يكن منطلقاً بالأساس من موقف تبشيري، لماذا؟ لأنه ألّف كتاباً عن معاوية بن أبي سفيان وآخر عن ابنه يزيد فكان ميّالاً إليهما ومادحاً بإطراء يزيد قبالة حقده وبغضه للأمامين الحسن والحسين إنه مستشرق مبشّر لكنه مبغض وحاقد بالدرجة الأولى. فالمستشرقون عموماً لم يكتفوا بدراسة الحالات الواضحة من تاريخنا بل تشعبوا في البحث عن دقائق الأحداث التاريخية بشأن المجالات التي جذبت اهتماماتهم أو بالأحرى تلك الموضوعات التي كانت ترتبط بتوجّهاتهم أكثر من غيرها.

وقد أثارت هذه الدراسات العميقة والدقيقة لأحداث التاريخ الإسلامي وحضارته من حفيظة عدد غير قليل من الباحثين العرب والمسلمين منذ أوائل خمسينيات القرن العشرين لأن يحصنوا أنفسهم منها والردّ عليها. عندئذ فقط بدأ التفكير في ماهية الدوافع التي حدت بهؤلاء الأجانب منذ منتصف القرن التاسع عشر على البحث ودراسة وتحقيق ونشر الدراسات والكتب عن تاريخنا، فصار ما يعرف الآن موضوع دوافع المستشرقين هو الشغل الشاغل في ردّ فعلنا إزاء ما حقّقه الأجانب في هذا المجال. كذلك فإن القارىء لا يجد في أي كتاب كتبه باحث عربي عن الحركة الإستشراقية إلّا وخصّص الحيّز الأكبر منه لميدان هذه الدوافع أو أهمها أي ميداني الدافع التبشيري والدافع الإستعماري أو التركيز على تحديد من هو المستشرق والمسيء ومن هو المستشرق غير المتحامل وغير المتعصب. ومضوا في سعيهم لصنع لوائح بأسماء المستشرقين غير المتحاملين وغير المتعصبين، وعلى صنع لوائح بأسماء المستشرقين في القائمة السوداء وأسماء آخرين تضمنتهم القائمة البيضاء وهكذا...

ومما لا شك فيه أن هناك نوازع شخصية أو عامّة أو وجود علاقة مسحيّة معلوماتية

عن الشرق بالنسبة إلى الدولة التي ينتمي إليها هذا المستشرق أو ذاك، فهي نزعة ليست محدّدة بالمستشرق إنما عامّة عند الجميع حتى بالنسبة إلينا حينما نبغي الكتابة عن بلد أجنبي مستعمّر لبلادنا أو غير مستعمّر فإننا ننظر إلى أحداثه نظرة مدفوعة بنازع أو أكثر من النوازع التي تسيرنا وتدفعنا إلى التحري عن مواطن الضعف أو المواطن التي تشير إلى حال الإنفصال بين الدين والسياسة أو ما إلى ذلك. ولنأخذ المرحلة التي قام بها سلام الترجمان في سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م زمن الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى الخزر والصقالبة لنرى الأوصاف السلبية التي وصف بها سلام الترجمان قبائل الترك وعادات الصقالبة الإجتماعية كالإباحية والإستهتار في القيم مع أن ملكهم قد أعلن عن اعتناقه الإسلام. ولنأخذ أوصاف أي من طلبة العلم والرحال من العرب والمسلمين لبلدان أوربية وإن كانوا سوّاحاً فهي تظهر تفكك هذه المجتمعات وتحلّلها وأحياناً عدم إيمانها على الرغم من تديّنها بالمسيحية. . . الخ.

فالحركة الإستشراقية منذ بداية نشاطها ليست إستثناء من ذلك، إي يجد المرء اتجاهاتها وتوجّهاتها قد تحدّدت وتركّزت في المدة التاريخية التي بدأ فيها الغرب يفكر ويخطّط في الشرق تفكيراً إستعلائياً حضارياً أو تخطيطاً إستعمارياً إقتصادياً وجيوبوليتكيا في السيطرة والإستحواذ. وكان الغرب المسيحي في القرن الثامن عشر فصاعداً غرباً توسعياً نحو الخارج بهدف غزوه وغزو أسواقه لغرض تسويق إنتاجاته وصناعاته. بينما كان الغرب المسيحي إبان عصور الكنيسة والحروب الصليبية وبعد فشلها خاض حرباً دفاعية، بمعنى الدفاع عن المسيحية إزاء تقدم الإسلام والدفاع عن الأراضي حول حوض البحر المتوسط بعد عمليات التراجع عن بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا أمام تقدم الفتوحات الإسلامية. وكذلك الدفاع عن الأراضي بعد نجاح عملية الاسترداد Reconquesta. فالغرب المسيحي (وإن كان في الظاهر) قد اندفع بعد عصر الإستكشافات الجغرافية وإبان عصر النهضة بدوافع إقتصادية أولاً واستكشافية ثانية واستيلائية إلى درجة ملحوظة في التوجّه صوب الشرق العربي والإسلامي وإلى المنطقة العربية من أجل الكشف عن المواضع التي تهمّه والتي تسدّ احتياجاته في السيطرة على منابع الثروات فيه واستثمارها تماما كما هو واقع الآن في القرن الواحد والعشرين عبر الحروب التي أجّجتها أمريكا في الشرق العربي والإسلامي بدوافع إقتصادية واستثمارية واستحواذية وإستراتيجية.

فمنطقة الشرق الأوسط شهدت منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من

القرن العشرين تصارعاً وتنافساً حادّاً بين الدول الغربية نفسها بهدف الهيّمنة والحصول على أكبر حصة ممكنة منها حلاً للمسألة التي عرفت بالمسألة الشرقية أو أراضي وممتلكات الرجل المريض. فمن جهة كان هناك تصارعا محتدما بين ألمانيا وبريطانيا بشأن مشروع بناء سكة حديد برلين ـ بغداد، ومن جهة ثانية في هذه المدة ـ مدة الصراعات والمنافسات ـ ظهرت الحاجة الماسّة لكل من هذه الدول في معرفة البلاد معرفة مفصّلة تاريخية ودينية (مذهبية) وإقتصادية وعلمية وأثرية أي المعالم الحضارية والتاريخية.. الخ والسياحية. عندئذ توجّهت أقلام الكتّاب والعلماء الغربيين نحو تهيئة مثل هذه المعلومات والتحريّات عن الأحوال الدينية والإجتماعية والقبلية والسياسية والإثنولوجية. وهنا نجد أيضاً حال من التنافس والتسابق بين علماء الدول المتصارعة بغية التوصّل إلى معلومات غنية وتفصيلية لوضعها على طاولة الساسة للإنتفاع منها في رسم المشاريع السياسية والإستراتيجية. فهذا الدبلوماسي الفرنسي جوزيف آرثر كومت دي جوبينو de Gobineau الذي خدم الدبلوماسية الفرنسية في طهران ما بين ١٨٥٢، ١٨٥٨، ثم عيّن مرّة أخرى في إيران فبقي من ١٨٦١-١٨٦٣. وإليه يعود الفضل في الوصول إلى نظرية الفوارق الجنسية Race كما يذكر المستشرق الإسرائيلي كوهلبرغ .Kohlberg وبخصوص موضوع بحثنا فإن (جوبينو) أولى أهمية خاصة بشأن الإنقسام في صفوف المذهب الشيعي ولا سيما بالنسبة إلى الإخباريين والأصوليين والخلافات المذهبية بينهما. وقدّم وصفاً مسهباً للتعازي (مفردها تعزية) التي يعقدها الشيعة في إيران في محرم وعاشوراء الأمام الحسين فدوّنها في كتاب له نشر في باريس عام ١٩٠٠ بعنوان الأديان والفلسفات في آسيا الوسطى. والمستشرق جوبينو قدّم فرضية صارت مثاراً للنقاش بين العلماء الإيرانيين بقوله، وهو الذي تبناه أيضاً المستشرق البريطاني أدوارد براون Browne، ومفاده أن التشيّع في إيران إن هو إلا نسخة مطابقة لكن بعرض جديد للديانة الساسانية. وقوله إنه بسبب هذا الإتجاه في حقيقته كان ردّ فعل الإيرانيين باتخاذهم موقفاً معارضاً من الاحتلال العربي لبلادهم في أثناء الفتوحات الإسلامية (هذا الرأي قد كرّره المستشرق برنارد لويس وهو بكل تأكيد بحاجة إلى ردّ كما مرّ ذكره آنفا). فالدبلوماسي المستشرق جوبينو قد زوّد بلاده التي دخلت هي الأخرى حلبة الصراع في الشرق بينها وبين الهولنديين في منطقة الخليج خاصة بمعلومات محدّدة. ولا شك في أنها قد انتفعت من هذه الدراسة الشاملة في النصف الأول من القرن التاسع عشر وذلك لإبراز العلاقة بين التشيّع في إيران من جهة والقومية الفارسية من جهة أخرى. وتقريباً في الحقبة التاريخية نفسها كان كلّا من

المستشرقين البريطانيين أدوارد براون ونيكلسون يعكفان على دراسة تاريخ الأدب الفارسي الذي وضعه المستشرق الأول بأربعة أجزاء وخصّص الكثير منه لموضوع التشيّع والمؤلفات الشيعية؛ وألّف الثاني تاريخ الأدب العربي(١). والبروفسور أدوارد براون فضلاً عن هذا أنتج عدداً من الدراسات والتحقيقات المهمة عن بعض الفرق التي خرجت عن الخط الإمامي الإثني عشري في إيران نظير:-- موارد لدراسة الدين البهائي وقد نشرها سنة ١٩١٨، ودراسة أخرى أنجزها بعنوان (قصة رحال قد كتبت عن حادثة الباب) ونشرها في كمبردج عام ١٨٩١(٢). في حين توجّه نيكلسون إلى دراسة التصوف فألف كتابين الأول عن التصوف الإسلامي، نشره في لندن عام ١٩١٤ والثاني دراسات في التصوف الإسلامي ونشره في كمبردج عام ١٩٢١ (٣).

وكان المستشرق براون قد أعلن منذ ١٩٢٤ م بأن المستشرقين عامة تنقصهم دراسة أو دراسات موثّقة وعلمية عن الشيعة والعقيدة الشيعية بلغات أوربية، وقد دوّن هذا التصريح في كتابه (الأدب الفارسي في العصور الحديثة). وهذا هو المستشرق الألماني فلهاوزن المعروف بنظريته عن المعارضة الإسلامية ضد الأمويين وبتركيزه على دور البدو، يؤلف في عام ١٨٩٩ دراسة عن (أصول التشيّع: دراسة حول البحث العلمي الغربي عن التشيع)، وطبعه في برلين(٤). كذلك اعتمد المستشرق الألماني الآخر المعروف فستنفلد الذي حقّق عدّة إنجازات منها اعتماده على كتاب أبي مخنف (مقتل الحسين) فحقّقه وترجمه وعرض في المقدمة رأيا قيّما عن أصل الكتاب ومدى الوثوق به؛ فضلا عن أنه قدّم عدة أمور بشأن العقيدة الشيعية(٥).

وفي الوقت نفسه فإن هذا التصارع الدولي على إحراز المكاسب السياسية والإستراتيجية والإقتصادية في منطقة الشرق الأوسط قد نشّط من فعاليات عملية أخرى فضلاً عن تأليف التقارير والبحوث والدراسات ألا وهي عملية إرسال البعثات التنقيبية للبحث عن المعالم الأثرية المهمّة في البلدان التي شملتها خارطة الشرق الأوسط.

---

(1) Nicholson R.G..A literary history of Arabs (two Editions the Second 1930).

(2) Browne: Materials fot the Study of the Babi Religian (London 1918). See De Gobineau >J.A.;Les religions et philosophies Asie Centrale (Paris 1865).

(3) Narrative written to illustrate the Episode the Bab (cambride 181.

(4) Willihausen: The Origins of Shiism ١٨٥٥ ترجم من الألمانية وطبع في برلين.

(5) Wustenfield: J.Der Tod des Husein ben ali und die Rach (Collingen 1883).

وفي هذه المدة بالذات وفي خضم سلسلة الصراعات السياسية تلك توجهت أقلام الباحثين الغربيين وعلماء التنقيب والآثار لدراسة آثار الشرق العربي والإسلامي والتحري عن أحواله الدينية والإجتماعية والإثنولوجية في الوقت نفسه. وكان التنافس واضحاً بين الدول الأوربية بهدف الحصول على معلومات تفصيلية للإنتفاع منها، لذلك نشطت في بداية الأمر حركات إرسال البعثات التنقيبية التي كان ظاهرها الكشف عن المعالم الحضارية والعمرانية والتاريخية للمناطق التي يبغي الساسة توسيع سيطرتهم وتركيز هيمنتهم عليها. غير أن تلك النشاطات كانت واقعياً تخدم سياسة الدول التي شجعت على إرسالها بطريق تقديم معلومات تاريخية ثمينة. وهناك قائمة طويلة بأسماء الآثاريين والسياسين في الوقت نفسه ومن بينهم:- دي بيليه De Beljlie ودي فوغو De Vogue الفرنسيين، كذلك بوكنون Pognon القنصل الفرنسي في مدينة حلب، وكلرمو القنصل الفرنسي في القدس وبعد ذلك نقل إلى الأستانة، وبوتي Pauty الذي اهتم بالمدن الإسلامية وكتب بحثاً قيّماً عن المدن الذاتية والمدن المخلوقة[١]. وقد تم تعيينه من الإدارة الفرنسية في المغرب الأقصى. وهناك أيضاً لوفتوس G.Loftos وكان من علماء الآثار البريطانيين وقد أشرف على كشف موقع نينوى وهو الذي نجح في العثور على بقايا قصر آشور بانيبال. بعد ذلك تم انتخابه عضواً في مجلس العموم البريطاني، ثم عيّن وكيلاً لوزارة الخارجية[٢]. وهناك السير هنري كرزويك راولنسون، وكان هذا ضابطاً في شركة الهند البريطانية الشرقية ثم عيّن مندوباً سياسياً في قندهار، وبعد ذلك تمّ انتخابه عضواً في مجلس العموم البريطاني. وهناك كرزويل الذي التحق بالجيش البريطاني في أثناء الحرب العالمية الأولى[٣] K.A.Creswell وغيرهم.

والبعثات التنقيبية عن الآثار الحضارية في وادي الرافدين ووادي النيل ووادي السند والحضارة الفارسية القديمة أدّت أدوارا بالغة الأهمية ولاسيما في المكتشفات الأثرية الرائدة وقد اكتشف العلماء عن اكتشافات باهرة من إسهامات شعوب الشرق الأوسط الحضارية التي سبقت بكثير إسهامات الغربيين في الحضارات اليونانية

(1) See Pauty "Villes spontance et villes cres " in Annales de L,Institut d, Etudes Orientales (IX (1951).

(٢) ينظر نجيب العقيقي: المستشرقون ج٢ص٥٦٩، ج٣ص١٠٥٦،١٠٥٢

(٣) ن.م. ج٣ ص١٠٥٦؛ قدري قلعجي: الخليج العربيص٢٦٢؛ ولسون: الخليج العربي (ترجمة عبد القادر يوسف) ص٢٠٤.

والرومانية. فكانت البعثات التنقيبية مهمة بالنسبة إلى بلدان الشرق لأن شعوبها آنذاك لم يتوّجهوا إلى آثارهم ومخلّفات حضاراتهم وإنجازات شعوبهم القديمة. فما أن وصل العلماء الغربيون حتى أزاحوا الستار عن ذلك الإرث الحضاري الضخم. ورب سائل يقول ما الفوائد التي جناها العلماء الأوربيون الغربيون؟ هناك فوائد كثيرة جداً وأصيلة جداً إذ نقلوا إلى متاحف بلدانهم أرقى اللوحاتٍ والآثار الضخمة والأختام الأسطوانية المهمّة؛ فأضحت متاحف اللوفر والمتحف البريطاني ومتاحف ألمانيا وفرنسا وغيرها تضمّ عيّنات نادرة جداً قد حصل عليها الأثريون ونقلوها إلى بلدانهم؛ وهي كذلك مفيدة جداً للساسة وهم ينشدون إلى معرفة الأصول الحضارية لهذه البلدان. فهذا هو المستشرق دوايت دونالدسون Donaldson قد كتب بحثاً مهماً له طابع إثري عن المحاريب المهمة في الحرم المقدس في مدينة مشهد(١)، ونشره في عام ١٩٣٥. وتناولت الأثرية ريّا شاني في كتابها المتعلق بإثر - Gundad - I Alawiyan Hamadan أظهرت فيه التنقيبات والآراء الأثرية في هذا الأثر الشيعي من قبل الأثري هرتزفيلد ومواينورسكي وولتر(٢). والجدير ملاحظته بأن هناك أعلاما من الآثاريين والمنقبين ممن كانوا سياسيين في الوقت نفسه، وهو أمر قد نوّهنا عنه آنفا نظير المستشرق المعروف بنظريته حول المدن الإسلامية الذاتية والمدن التي أسّسها المقاتلون المسلمون في أثناء الفتوحات الإسلامية(٣)، وقد عينته فرنسا في المغرب العربي. وهؤلاء جميعهم من العلماء الفرنسيين في الآثار والتنقيبات.

وإلى جانب البعثات التنقيبية فقد نشطت خلال هذه المدة التاريخية فعّاليات الحركات التبشيرية الفرنسية والإنجليزية والأمريكية. والواقع فهي قد أدّت دوراً فعّالاً في المجالين التبشيري والسياسي. فضلاً عن ذلك هناك عدد من المبشرين قد أنصرف همّه إلى تعلّم اللغة العربية، قراءة وكتابة، بهدف البحث والدراسة لعدد من موضوعات التاريخ الإسلامي أغلبها وأهمها ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية والتعاليم الإسلامية والقرآن الكريم والفرق الإسلامية، ومن أمثال هؤلاء المبشرين الأب

---

(1) Donaldson, Dwight " Significant Mihrabs in the Haram of Mashhad" in Ars Islam (2) 1935 pp. 118-27.

(2) Raya Shani: A Monumeutal Manitestation of the Shiite in late twelfth century Iran: the case of Gun - AIWIYAN. Hamdan (Oxfoed 1996).

(3) Pauty, Villes. "Spontanee et Villes Crees" in Annales de L- Institut de Etudes Orientales(ix-1951).

جوسين P.A.Jaussen، والأب جاك جوميه J.Jomier والأب لويس كارديه L.Gardet، وهؤلاء كانوا من المبشرين الفرنسيين. والأب صموئيل زويمر S.Zemmer وهو من الولايات المتحدة الأمريكية وكان رئيس المبشرين الأمريكان في الشرق الأوسط ورئيس تحرير المجلة التبشيرية المعروفة (عالم الإسلام Moslem World) وغيرهم. وما يذكره الدكتور عبد المالك التميمي المتخصّص في حركات التبشير في الجزيرة العربية والخليج وله مؤلفات حول ذلك قوله إن العلاقة بين الإرساليات التبشيرية والنشاط السياسي ولاسيما بالنسبة إلى ممثليّ تلك البعثات التبشيرية كان واضحاً فيقول ما نصّه: ((فلقد أصبح المبشرون حملة ثقافة غربية إمبريالية ويبشرون بها بالإضافة إلى مهمتهم الدينية أو تحت ستار المهمة الدينية لدى بعضهم)).

وفي هذا الصدد فإن الإرساليات العلمية كالبعثات الطبية الإستطلاعية كانت مرتبطة بالحركات التبشيرية وهي الأخرى نجحت في أن تقدّم خدمات كبيرة عن طريق تزويد الساسة بمعلومات حول مجالات شتى. فهي من الجانب الإيجابي قدّمت في أثناء تجوالها الخدمات الطبية لأهالي المناطق التي يزورونها من أجل كسب ودّهم ونيل ثقتهم بوساطة إظهار الجانب الإنساني من وراء أعمالهم الإرسالية ولكنها في الوقت نفسه كانت (متورطة) سياسياً و (دينياً)، فقد كانت توزع الكتب الدينية التبشيرية. ثم أنها كانت الوسيلة التي عن طريقها يمكن تحسّس ردود فعل الأهالي أو بالأحرى مدى استجابهم لعرض المبادئ الدينية المسيحية. وخير مثال على هذا ذلك التقرير السياسي الذي بعثه الطبيب البريطاني الجرّاح موضحاً فيه أحوال الأماكن الإجتماعية والثقافية والدينية تلك التي عمل فيها ومشيراً إلى الكيفية(١) التي ينبغي التعامل مع أبنائها وأهاليها بغية كسب جانبهم. فضلا عن ذلك فإن من المفيد الإشارة إلى السياسي الدبلوماسي والمؤرخ البريطاني السير ارنولد ولسون فيما كتبه من تقارير وكتب مفصّلة عن العديد من الموضوعات التاريخية والسياسية(٢) عن منطقة الخليج. والأدلة على تورط البعثات التبشيرية في الأمور السياسية كثيرة ولكننا فيما يأتي سنكتفي بإيراد ما كتبه مؤلفان أمريكيان. فقد أشار ديفيد فنّي David H.Finnie في كتابه (التجربة الأمريكية

---

(١) ينظر التميمي؛ عبد المالك "الأستعمار الثقافي الغربي في منطقة الخليج العربي" في مجلة الخليج العربي البصرة ص ٥-٧؛

(2) David H. Finnie: Pioneers East: the early American experience in the Middle East(Mass.1967) P.118,129,130.

المبكرة في الشرق الأوسط) إلى أن الإرساليات التبشيرية الأمريكية تختلف عن الإرساليات الأوربية ولاسيما الفرنسية وذلك لعدم تورّطها في السياسة الخارجية. ومع ذلك فقد كان للبعثات الأمريكية إتجاهها السياسي الخاص بها، وعلى أنها ضدّ الدولة العثمانية، فهم قد وجدوا أن الحكم التركي يشكّل عقبة في طريق عملهم التبشيري. وفي الوقت نفسه فإن المؤلف الآخر دونوفو John A.De Novo يقدّم تفصيلات مهمة عن المجالات التي تتمثّل فيها المصالح الأمريكية فيذكر على رأسها البعثات التبشيرية Missionaries التي، كما يقول نصّا: ((إنها غالباً ما كانت تطلب مساعدة الحكومة الأمريكية). إن البعثات التبشيرية الأمريكية كانت بحدود سنة ١٩٠٠م وكانت تعمل في خمس مناطق، أناضوليا، تركيا الأوربية، سورية، فلسطين والخليج والجزيرة العربية. أما المجال الآخر فهو البعثات الأثرية التي تركّزت في فلسطين ومصر والعراق، والمجال الثالث كان في تأسيس الكليات، والمعاهد. أما المجال الرابع فيتلخص في الأعمال التجارية.وكان المجال الخامس والأخير يتمثل بزيارات الأساطيل الأمريكية[١].

فالإرساليات التبشيرية قد عدّت في نظر De Novo الوسيلة الأولى التي تمثّل المصالح الأمريكية في المنطقة لذا فإن الخارجية الأمريكية State Department قد أسّست شبكة من التحالفات السياسية والهيئات الدبلوماسية في الشرق الأوسط لحماية رعاياها الأمريكان[٢]. وكانت البعثات التبشيرية الأمريكية تحصّل على مساعدات مالية كبيرة من الحكومة.

وفضلا عما سبق ذكره من نشاط الحركات التبشيرية والتنقيبية ومدى ارتباطاتها السياسية فقد برز الى الوجود ومنذ الربع الأول من القرن العشرين تحرّك غربي آخر مجاله الظاهري إقتصادي وكان في حقيقته يعمل أيضاً على تحقيق أهداف سياسية وهوالمتمثّل بالشركات المنقّبة عن النفط. وما تمّ في أثناء ذلك من دراسات حقلية ميدانية وجغرافية وطبوغرافية واقتصادية للمناطق الغنية التي كانت الشركات تخطّط إلى توسيع نفوذها الإحتكاري فيها من أمثال دراسات شركة ستاندرد أويل Standard oil وكذلك شركة Sconoy وشركة ستاندرد أويل أوف نيوجرسي، وشركة ستاندرد أويل

(1) Ibid.

(2) Ibid.

أوف نيويورك.

وجنباً إلى جنب مع تصاعد هذه الحركات والنشاطات الأوربية وعلى الأصعدة المختلفة تزايد اهتمام المؤسسات العلمية كالجمعيات السياسية الأوربية في الدراسات العربية والتراث العربي فتأسّست كراسي لهذه الدراسات في فرنسا وألمانيا وهولندا وأسبانيا وأمريكا. وقد قدّمت العديد من كتابات ودراسات المستشرقين الأوائل خدمات كبيرة في توجيه سياسة الدول الأوربية المتنافسة لإحكام سيطرتها السياسية والإقتصادية على المنطقة. وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك ملاحظة هامة تسترعي الإنتباه ألا وهي أن عدداً غير قليل من المستشرقين المتخصصين بالدراسات التاريخية الإسلامية والدراسات العربية من اليهود وكان لبعضهم ارتباطات صهيونية. والمعروف أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين شهدا تحرّكاً (صهيونياً فعّالاً) لتحقيق أطماع هرتزل وزعماء الصهوينة. وهذا أيضاً يؤيد ما ذهبنا إليه سابقاً من أن الحركة الإستشراقية وفي بعض جوانبها إن هي إلا صورة مرتبطة ومتطوّرة ومنسجمة مع الخرائط السياسية التوسعية.

وفي حقبة التصارعات السياسية بين الدول الأجنبية على الهيمنة على الشرق بدأت الحركات التبشيرية تؤدي دوراً ملحوظاً، كالبعثات التبشيرية الفرنسية والبريطانية والأمريكية. وكان دور هذه الحركات مزدوجاً في مجال التبشير وكذلك في المجال السياسي. وقد ورد ذكر عدد من المبشرين الذين انشغلوا في تعلّم اللغة العربية حديثاً وكتابة، فوظّفوا هذه الوسيلة في البحث والكتابة عن عدد من موضوعات التاريخ الإسلامي، وكان أغلب توجهاتهم قد انصرفت نحو دراسة تعالم الإسلام والقرآن الكريم، والفرق والمذاهب الإسلامية والمسيرة النبوية نظير: الأب جوسين P.A.Jaussen والأب جاك جوميه J.Jomier والآب لوس كارديه L.Cardet[1] وهم من فرنسا والأب المعروف بنشاطاته التبشيرية صموئيل زويمر Zewemer الأمريكي الذي كان رئيساً للمبشرين في الشرق الأوسط، وفي أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد اهتمت اهتماما ملحوظاً في إرسال البعثات التنقيبية والبعثات التبشيرية ففي سنة ١٨٨٩ أرسلت أمريكا أول بعثة تنقيبية تابعة للمعهد الأثري الأمريكي الذي كان مقره في نيويورك واتخذت هذه البعثة مقر عملها التنقيبي مدينة بابل. أعقبتها في

---

(١) م.ن جزء ٢ ص١٠٥٦، ١٠٥٢.

سنة 1889 بعثة أخرى اتخذت مدينة نفّر. واستمرت أمريكا بإرسال البعثات التنقيبية إلى العراق ـ بلاد ما بين النهرين ـ حتى وصلت إلى ثلاثين بعثة ما بين سنة ١٨٨٥-١٩٢١ وحسب ما أورده الدكتور تقي الدبّاغ أنها نقّبت في أربعة عشر موقعا أثريا[1]. وواقعاً فإن امريكا بينما شجعت على جعل الباب مفتوحاً على العمليات التنقيبية وشجعت العلماء على ذلك؛ فإنها من الجانب الآخر مولت البعثات التبشيرية فقد كان التصوّر السائد في أمريكا عن الشرق بأنه مهد الحضارة الغربية وأن الشرق عزيز عندهم لأنه مهبط ومنطلق الديانة المسيحية[2]. والواضح أن الأمريكيين قد التفتوا إلى التبشير وأهميته منذ زمن مبكر يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر وهي حال لعلها ترجع إلى توجههم الديني المسيحي البروتستاني والكاثوليكي؛ أو إلى عنفوان توجههم السياسي الإستعماري بعد تصاعد نفوذ أمريكا السياسي في العالم. وكان الشرق الأوسط المركز الأساس الذي توجهت إليه البعثات التبشيرية الأمريكية إنطلاقاً من التصوّر الذي تمّ ذكره آنفاً بأن البلاد تعدّ مهد الحضارة الغربية ومهد ميلاد المسيح. فوصلت البعثات التبشيرية إلى الموصل والبصرة في العراق. وفي سنة ١٨٢٠ وصل إلى بيروت مبشرون أرسلتهم اللجنة الأمريكية للإشراف على الإرساليات الأجنبية وأتخذت جزيرة مالطة مركزاً لأعمالها. ثم نقلت اهتماماتها التبشيرية إلى سوريا في ١٨٢٣، إذ عملت على نقل مطبعة كانوا يطبعون بها منشوراتهم التبشيرية.وأسّست اللجنة أوّل مدرسة أمريكية تبشيرية عام ١٨٣٥ في سوريا بعدها أخذت هذه المدرسة تنمو تدريجياً حتى أضحت من المراكز التعليمية المهمة في الشرق ثم تحولت إلى كلية بعد عقدين من الزمان أي في سنة ١٨٦٠ وصارت تعرف بالكلية السورية البروتستاتية، وعين المبشر دانيال بلس Daniel Bless أول عميد لها. وتوسّع عملها في تأسيس المدارس والمؤسسات التبشيرية في بلاد الشام حتى بلغ عددها في سنة ١٨٦٠ ثلاثاً وثلاثين مدرسة ضمّت حوالي ألف تلميذ.

وحقّقت هذه اللجنة التبشيرية نجاحات كثيرة موازنة بالبعثات البشيرية الفرنسية، وكان المشرفون عليها إذكياء في اهتبال الفرص السياسية المتذبذبة في بلدان الشرق الأوسط فتأسّست مدارس في مصر وفلسطين والعراق وتركيا وإيران؛ وأسست كليات

---

(١) الدباغ، د. تقي وآخرون: طرق التنقيبات الأثرية (بغداد ١٩٨٣) ص ٥١، ٥٠، ٥٢.

(٢) فرحات: تاريخ الشعب الأمريكي ص ٢٧٠ اعتماداً على رسالته الاستشراق الأمريكي (تحت أشرافي) جامعة تكريت ص٤١.

للتعليم العالي في جامعة بيروت والقاهرة وفي كلية روبرت في أسطنبول وكلية في طهران. ونشطت البعثات الأمريكية التبشيرية في العمل التبشيري في شمال العراق، إذ يؤلف الآشوريون والأرمن نسبة عالية من السكان. واستثمرت مؤسسة التبشير الأمريكان فرصة اعتراف الإمبراطورية العثمانية في سنة ١٨٤٨ بالبروتستانت ونشاطاتهم، فتوافد المبشرون الأمريكان على مدينة الموصل وتأسست البعثة التبشيرية العربية Arabian Mission في البصرة عام ١٨٩١ مستفيدين من موقع البصرة الجغرافي ومن وجود قنصلية أمريكية فيها.

ونحن أهالي البصرة نتذكر دائماً نشاط هذه المؤسسة الأمريكية التبشيرية إذ كانت ترحّب بالشباب المسلم في المدرسة وتوزّع عليهم الكتاب المقدس بطبعته الجميلة[١]. وتكرّر مثل هذه العملية في أثناء الغزو الأمريكي للعراق في ٢٠٠٣ إذ أخذ الكاهن وهو مسؤول الجمعية الخيرية فرانكلن غريم ابن الكاهن بيلي غريم الذي كانت مواعظه قد أثرت في الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن. فكانت منظمة فرانكلن (باسم صندوق المال السامري) وهي من أكبر وكالات الإغاثة المسيحية في العالم. فعندما أعلن عن التعبئة والإستعداد لإعانة الذين تضرروا من جرّاء الحرب (لتحرير) العراق، وإعادة بناء وإعمار العراق؛ نظّم عربات ترحيب مسيحية وكانت مشحونة بالأناجيل والمساعدات المحزّمة بأشرطة تسجيل تبشيرية (ينظر: - فيللي؛ بول: الحملة الصليبية الخامسة:- جورج بوش ونصرنة الحرب في العراق؛ المنشور في صحيفة الإندبندنت Independent؛ المنشور في مجلة الحكمة التي تصدرعن بيت الحكمة في بغداد، عدد ٤٤ سنة ٢٠٠٧ ص٢٢٩-٢٤٦، ولاسيما صفحة ٢٣٤). وكان صموئيل زويمر وهو تلميذ المستشرق لانسنغ Lansing الذي كان يعمل أستاذ اللغة العربية في معهد اللاهوت للكنيسة الإصلاحية الهولندية[٢]، وله مؤلفاته عديدة منها كتابه الجزيرة العربية مهد الإسلام طبعه في نيويورك عام ١٩٠٠ [٣]. وأصبح زويمر من

---

(١) ينظر:

De Novo John: American interests and politics in the Middle East (Minneapolic 1963) p. 14.
Layard, A.H Discoveries in Nineveh ad Babylon (London 1853) p. 378/379.

(2) Addison, James: The Christain Approach to the Moslem (New York 1942) p. 169.

(3) Zewemer, S,M. Arabia the cradle of Islam

العقيقي، المستشرقون ج٣ ص١٣٨

المستشرقين المبشرين المؤثرين على الّستشراق الأمريكي. فقد تأثر به المستشرق كالفرلي أدوين مؤلف كتاب سيرة محمد وسنة طبعه في ١٩٣٦ E.E.Calverley، ولا سيما آراء زويمر التي تشير الى أن رسول الله ما هو إلا صاحب بدعة وخارج عن الكنيسة المسيحية[١]. ويقول الدكتور التميمي في كتابه المشار اليه آنفا إن العلاقة بين البعثات التبشيرية الأمريكية وغير الأمريكية وبين النشاطات السياسية لممثلي هذه البعثات، بمعنى للدول التي كانت ترعاها، وطيدة مادية ومعنوية بما نصّه: ((صحيح أن نشاط الإرساليات متمركز على النشاط الطبي والتعليمي والديني ولكن أيضاً كان لهم نشاط سياسي لقد أصبح المبشرون حملة ثقافة غربية إمبريالية يبشرون بها بالإضافة إلى مهمتهم الدينية أو تحت ستار المهمة الدينية))[٢].

وفي هذا الجانب لا ريب في أن الإرساليات العلمية كالبعثات الطبية الإستطلاعية هي الأخرى مرتبطة بشكل أو بآخر بالبعثات التبشيرية؛ وكانت أيضاً تقدم خدماتها للساسة بمعلومات في ميادين إجتماعية وصحية، فهي من الجانب الإيجابي قدّمت خلال تجوالها الخدمات الطبية لأهالي المناطق بهدف كِسب ودّهم وثقتهم لكنها في الوقت نفسه كانت متورطة في التبشير والسياسة إذ كانت توزع الكتب الدينية التبشيرية فضلاً عن أنها كانت الوسيلة التي بوساطتها يتحّسس الساسة ردود فعل الأهالي أو بالأحرى مدى استجاباتهم لما يعرضه المبشرون بشأن العقيدة المسيحية. ومثال على ذلك التقرير السياسي الذي بعثه الطبيب البريطاني الجراح بول هرزون إلى السلطات البريطانية شارحاً فيه أوضاع المناطق التي كان يعمل بها ويشير إلى الكيفية التي ينبغي التعامل بها مع ابناء المنطقة[٣]. ولما كان الحديث عن العلامة المميّزة التي تميز بين الإستشراق والتبشير والإستشراق والسياسة، فلا مندوحة من الإشارة إلى السياسي الدبلوماسي والمؤرخ البريطاني المعروف بكتابه التاريخي The Persian Culf السير آرنولد ولسون، فإنه قد كتب تقارير وكتباً مفصّلة عن العديد من الموضوعات التاريخية

(١) ينظر:

Calverley, E.Review of zewemer in moslem World (1925) p. 63.

(٢) ينظر:

Calverley, E:" Review of Zewemer" in Moslem World 1925 p. 63.

الاستشراق الأمريكي، ص ٤٠.

(٣) التميمي، التبشير: ص ٧.

والسياسية في منطقة الخليج[١]. كذلك من الأدلة التي تؤكد تورط البعثات التبشيرية في الأمور السياسية ما ذكره المؤلفان الأمريكيان ديفيد فنّي David H.Finnie في كتابه (التجربة الأمريكية المبكرة في الشرق الأوسط) وجون دينوفو John A.De Novo في كتابه (المصالح الأمريكية والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسط بين ١٩٠٠-١٩٣٩)، إذ أشار الأول منهما إلى أن الإرساليات التبشيرية الأمريكية تختلف عن الإرساليات الأوربية ولاسيما منها الفرنسية في عدم تورطها في السياسة الخارجية[٢]. ومع هذا فقد كان للبعثات الأمريكية توجّهها السياسي الخاصّ بها لأنها سياسياً كانت ضدّ الدولة العثمانية وكان الأمريكان يعتقدون بأن الحكم التركي العثماني يشكّل عقبة في طريق عملهم التبشيري[٣]. أما دي نوفو فإنه يقدّم تفصيلات مهمة بشأن المجالات التي تتمثّل فيها المصالح الأمريكية ويقف على رأسها مجال البعثات التبشيرية Missionaries (وكانت في الغالب تطلب مساعدات من الحكومة الأمريكية)[٤]، وكما تمّ ذكره أيضاً فإن البعثات التبشيرية الأمريكية كانت بحدود سنة ١٩٠٠ تعمل في خمس مناطق هي: الأناضول وتركيا الأوربية وسورية وفلسطين والخليج.

أما المجال الثاني الذي تتمثل به المصالح الأمريكية فهو البعثات الأثرية التي تركّزت ـ كما يذكر ـ دينوفو في فلسطين ومصر والعراق، كذلك فإن هناك مجالاً ثالثاً للمصالح الأمريكية ويتمثل في تأسيس المدارس والمعاهد والكليات، وأما الرابع فيتمثل بالأعمال والصفقات التجارية بما قال عنه الاستثمارات، والخامس فهو واضح في الزيارات التي تقوم بها الأساطيل الأمريكية[٥]. نخلص إلى القول ـ حسب نظر دي نوفو ـ بأن الإرساليات التبشيرية تعدّ الوسيلة الأولى التي تمثل المصالح الأمريكية

---

(١) فضلاً عن كتابه المذكور (الخليج الفارسي) بالإنجليزية طبعه في اكسفورد أم ١٩٢٨، له أيضاً ما بين النهرين بين سنتي ١٩١٧-١٩٢٠ (طبع ١٩٢١)، وكتاب بلاد فارس (طبع ١٩٢٢) وكتاب شمال غربي فارس (طبع ١٩٤١) وكتاب شط العرب (طبع ١٩٢٥).

(2) David H.Finnie: Pioneers East: Tge Early American experience in the Middle East (Massauchesttes 1967) p. 129.130.

(3) David H. Finnie: Pioneers East, The Early American experience in the Middle East.

(4) Op.Cit. p. 9-18s.

(5) Ibid.ps,17, 18.

في الشرق الأوسط. وعلى هذا الأساس عملت الحكومة الأمريكية أو وزارة خارجيتها State Department على تأسيس شبكات من التحالفات السياسية وهيآت دبلوماسية في الشرق الأوسط لحماية رعاياها ومصالحها، وكانت البعثات التبشيرية تحصل على مساعدات مالية من الحكومة[١].

إذن فالبعثات التبشيرية والعمليات التنقيبية فضلاً عن التوجّهات العلمية الأخرى والتجارية والإقتصادية ولاسيما منذ الربع الأول من القرن العشرين التي أخذت تتصاعد بفعل عامل ظهور الثروة النفطية. وهذا المتغير قد أدّى دورا رياديا في تصاعد النشاطات الأجنبية على الأصعدة المختلفة وأدّت بدورها إلى تزايد اهتمامات المؤسسات العلمية كالجامعات في أوربا وأمريكا في ميادين الدراسات الشرقية العربية والإسلامية. وبادرت بعض هذه الدول مثل فرنسا وألمانيا وهولندا وبريطانيا وروسيا وأمريكا إلى التركّيز على المؤرخين والأدباء وعلماء الآثار والمحقّقين والمبشرين وحثهم وتشجيعهم على مواصلة الدراسة والبحث والتنقيب. ومع أن القارىء سوف يستنتج بالتأكيد أن السياسة والتبشير هما الدافعان والمحفزّان الأساسيان للتوجهات العلمية نحو الشرق. وأن العديد من كتابات ودراسات المستشرقين الأوائل قد قدّمت خدمات كبيرة لتوجيه أو لتطوير سياسة الدول المتنافسة بهدف إحكام سيطرتها السياسية والإقتصادية. فضلاً عن ذلك فالمستشرقون المتخصصون في الدراسات التاريخية الإسلامية ومن ضمنها التاريخ السياسي والتاريخ الفكري والحضاري ودراسات القرآن الكريم والفقه والحديث والدراسات الإسلامية التراثية هم من بين اليهود وكان لبعضهم ارتباطات صهيونية. والملاحظ أن الربع الأخير من القرن العشرين قد شهد تحرّكاً صهيونياً فعّالاً لأجل تفعيل أطماع هرتزل وزعماء الصهيونية وسوف نتطرق إلى نشاطات وإسهامات جديرة بالقراءة والتمعن عن عقيدة الشيعة وعن مسائل مهمة كالأمامة والفقه الشيعي وعقيدة المهدي قد أنجزها مستشرقون إسرائيليون وهم يعتمدون على المضّان الشيعية الأساس، وأن عدداً غير قليل من أعمالهم قد تم ترجمتها إلى اللغة الفارسية والتركية ولغات أجنبية كالفرنسية والألمانية.

ففي مجال التبشير مثلاً وما قام به هؤلاء من أعمال ومؤلفات حول التشيع، كما سنرى لاحقاً، فهناك دراسات قديمة تناولت موضوعات مهمة نظير:- دراسات

---

(1) Ibid ١٩ ،٢٥،٢٣ ويتظر أيضاً مصطفى الخالدي؛ المصدر السابق الصفحات.

المستشرق المبشر البريطاني دوايت دونالدسون والمستشرق البريطاني الآخر هوليستر Hollister إذ ألّف الأول كتاباً عن الديانة (عقيدة) الشيعة في إيران والعراق، وكتب الثاني عن الشيعة في الهند، وكتاباً آخر بشأن الشيعة في القارة الآسيوية فضلاً عن الدراسات الكثيرة التي تناولت السيرة النبوية والرسول الكريم.

فهل تحفّزنا المعلومات السابقة إلى الأستنتاج بأن الحركة الإستشراقية منذ نشوئها ما هي في بعض جوانبها إلّا صورة مرتبطة ومتطوّرة بأستمرار بتطوّر وتغير الخرائط السياسية الأوربية التوسعية وكذلك بخرائط التبشير الفرنسي والأمريكي والبريطاني؟ الجواب المباشر عن هذا التساؤل نعم، آخذين بنظر الإعتبار ملاحظة في غاية الأهمية ألا وهي ضخامة العمل الإستشراقي وأصالته في كثير من مفاصل بحوث المستشرقين وتحقيقاتهم ودراساتهم. فالدافع السياسي مثلاً لا يتطلب من الأقلام الموجّهة إلا في الكتابة عن أمور لها علاقة بالتركيب الإجتماعي وبما له علاقة بالأحوال الدينية والمذهبية وبما له ارتباط تاريخي بهذه المسائل. إذ يلاحظ مثلاً أن المؤلفات والدراسات المركّزة عن التشيع والإمامية الإثني عشرية وعن عقيدة المهدي قد تضاعفت كثيراً بعد الثورة الإسلامية الإيرانية؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على دفع سياسي من الدول التي ينتمي إليها هذا المستشرق أو ذاك. لكن أليس من الممكن بل ومن المعقول أن هناك مجالاً لحبّ الإطّلاع عند المستشرقين والمؤلفين الغربيين لمعرفة المذهب الشيعي الذي كانوا يعتمدون من أجل فهمه على الرواية الأموية والعباسية السائدة؟ إذ كانوا يعتقدون بأنه مذهب هرطقة وبدعة وبعيد عن الإسلام الحنيف كما صوّره ابن حزم الظاهري مثلاً؛ بينما أخذوا يدركون إدراكاً حقيقياً وواقعياً بأنه مذهب إسلامي توحيدي، وأتباعه هم مسلمون لا كما أشارت إليهم كتابات بعض كتب الفرق الإسلامية بل بعض من المؤرخين المسلمين في إظهار المذهب على أنه خروج عن الإسلام؟ هذه الملاحظة قد توسّع الفكرة حول خطورة التعميم السياسي والتبشيري كدافع واحدي للإستشراق بشكل عام؛ وفي جميع الأحوال ربما يصطدم هذا التعميم في الدافع الواحد بحالات صعبة نظير:-

١- تشعّب مناهج البحث العلمي في أوربا وأمريكا ليس بالنسبة للتاريخ الشرقي فحسب إنّما في جميع العلوم والتواريخ الشرقية منها والأوربية والأمريكية أيضاً.

٢- تنامي حركات النقد العلمي والجدل العلمي بناء على ما وفّرته المصادر

الجديدة المكتشفة عن مناحي شتّى من التراث العربي والإسلامي أدت بالضرورة إلى دراسة هذا الموضوع أو ذاك وظهور ردّ فعل بدراسة نقدية فيها إضافات واستنتاجات.

٣- الدراسات والتحقيقات الإستشراقية الكثيرة جداً عن جوانب علمية وفلسفية وفنية محض لا يظهر فيها الدور السلبي للدوافع السياسية والتبشيرية كالكتابة عن الرياضيات والطب والكيمياء والفيزياء وعلوم الحياة والنبات والفلك والهندسة والبناء والتكنولوجية وجوانب إقتصادية دقيقة كالضرائب والتجارة والصناعة والزراعة.

٤- الإنفتاح علمياً على مناهج بحث الآخرين وما توصّلت إليه إسهاماتهم ولا سيما بالنسبة إلى العلماء والباحثين غير الأوربيين. ولنأخذ مثالاً على ذلك يتعلق بموقف المستشرق مونتغمري وات Watt، إذ يقول بشأن الدراسات العربية المتعلقة بسيرة رسول الله ما ترجمته التي في كتابه الذي لم يترجم بعد وهو Mohammad the Prophet and Statesman وما نصّه تقريباً ((المسلمون على أية حال يزعمون محمداً بإنه أنموذج للإنسانية في الأخلاق والسلوك... وأنه ما زال الأمر مفتوحاً أمامهم اليوم لأن يقدّموا للعالم عرضاً كاملاً وموضوعياً عن هذا الأمر. فهل يتمكنون من غربلة ما موجود في المصادر عن حياة محمد بهدف اكتشاف المبادىء الأخلاقية عندئذ يقدّموا إسهاما خلّاقاً للعالم؟)).

هذا القول يدلّ على أن المستشرق وات كان منذ ستينيات القرن العشرين على معرفة بالدراسات العربية والإسلامية عن السيرة النبوية وأنه يرنو إلى معرفة المزيد، وفيما إذا كانت هناك دراسات تحليلية ومقارنة عن حقبة الرسالة؟ وفيما إذا أخضع الباحثون المسلمون الروايات السائدة في تاريخنا الإسلامي المبكر التي تحتاج إلى وقفه تمعن وتحليل؟. وسواء أكانت هذه الحال أم غيرها فإنها لا تدلّ قطعاً على ارتباطها بالخط السياسي الإستعماري أو حتى بالخطّ التبشيري. ولكن علينا أن لا نكون إيجابيين إلى درجة الإفراط بنوايا المستشرقين، فقد ينهجون بذلك منهج إثارة الشكوك في العناصر المهمّة من تراثنا وتاريخ سيرة سيد الأنام النبي. وهناك مسألة سبقت الإشارة إليها وهي أن الكثير من الروايات التي دخلت التاريخ بشكل متعمّد ومبالغ به ومزوّر كما عبّرت عنه مؤلفات الرجال والتراجم في نقدها للرواة والمحدّثين تدفعنا إلى ممارسة قدرٍ من التحليل والتريث في قبول الروايات كما وردت حرفيا وبصورة مطلقة أو نقبل بها على حالها.

لكننا ونحن نتطرق إلى الجوانب السلبية للحركة الإستشراقية ولاتجاهات المستشرقين لابدّ من الإشارة إلى أن للحركة جانباً إيجابياً يتمثّل بشكل صريح بما تثيره الدراسات والتحقيقات الإستشراقية فينا من اندفاع متحفّز للإستجابة العلمية المنظمة المعتمدة على مناهج بحث علمية وموضوعية بعيدة عن التزمت والتشنج من جهة؛ وبعيدة عن الإستخفاف بجهود الآخرين، وبعيدة عن التحزّب والحقد ضد الآخر المذهبي أوالديني أوالسياسي، وذلك بغية وضع مشروع علمي لرؤية تاريخية نافعة ومفيدة في دراسة تاريخنا العربي والإسلامي.ورب سائل يقول لماذا نريد هذا كلّه؟. ألم يكن الباحثون العرب منصفين وموضوعيين بما فيه الكفاية وأنهم يتحلّون بمناهج بحث علمية؟ أقول وبتواضع هناك تشعب في الدراسات الإستشراقية ومركزيتها وهذه قد أثرت كثيراً بل بالأحرى صارت أنموذجاً يحتذيه العديد من الباحثين المحدثين ممن تتلمذوا في أوربا وأمريكا فاتجهت أهدافهم واهتماماتهم وجهة مقاربة إلى حد كبير مع اتجاهات وأهداف واهتمامات المستشرقين نفسها. فالمستشرقون ألّفوا في موضوعات كثيرة من تراث الإسلام، ولا سيما الموضوعات التي تهمهم أكثر من غيرها، فكانت الحصيلة صدور فيض غزير من الدراسات الأجنبية والعربية المكملة والمتمّمة لتلك الميادين التي طرحها المستشرقون ودرسوها منذ نهاية القرن السابع عشر؛ كاتجاه التركيز على الجوانب السياسية والعسكرية من تاريخنا، وحالات الانقسام في جسم الدولة المركزية، وموضوعات التكوين الإجتماعي والطبقي والقبلي والعنصري والمذهبي للمجتمع العربي الإسلامي. لذلك بات على الباحثين العرب والمسلمين أن يتحملوا قسطاً كبيراً من مسؤولية الدراسة والبحث في الحركة الإستشراقية ولما تثيره من تحدّ فكري يدعوا العلماء العرب والمسلمين إلى إعادة النظر في الكتابات التي تمّت كتابتها لحدّ الآن عن بعض النقاط الساخنة من تاريخنا؛ وإلى العمل المخلص بهدف تخليص ما علق في كتبنا الدراسية والمنهجية من معلومات قيّدتها وحوّرتها وزيّفتها المرويّات التي خضعت للجرح والتعديل من قبل علماء المسلمين في هذا الميدان العلمي. فالمفروض بالنسبة إلى مؤرخينا العرب والمسلمين في الوقت الراهن وأولئك المهتمين بدراسة السيرة النبوية الشريفة وتاريخ العرب والمسلمين خلال القرن الأول للهجرة توسيع ثقافاتهم المصدرية وصولاً إلى وضع مخطّط شامل علمي وهادف عن المظهر العالمي للسيرة النبوية ومصداقية الرسول الكريم بحسب ما توفّر من آيات قرآنية ومرويات موثّقة ومقبولة بدلاً من الإكتفاء بما هو متوافّر من مصادر إسلامية على الرغم من أهميتها البالغة؛ وأعني بذلك توسيع المعرفة بالتواريخ المحلية للبلدان

المجاورة للعرب آنذاك كتاريخ الحبشة وتاريخ مصر وتاريخ الأقباط وتاريخ السريان في بلاد الشام وتاريخ اليهود وتاريخ الفرس وتاريخ الصين وتاريخ الهند وتاريخ بيزنطة في القسطنطينية وتاريخ روما.كذلك أن يتوسع العلماء بدراسة تاريخ تطوّر المسيحية والفرق التي خرجت في المجامع الكنسية عن المذهب المألوف؛ والفرق المسيحية التي انتشرت في بلاد الشام والجزيرة الفراتية كاليعاقبة والنساطرة... نحن بحاجة إلى كل ذلك فلعل الباحث، سيعثر على معلومات تاريخية مهمّة تبدّل من آراء المستشرقين وتلغي بالتالي شكوكهم. ففي هذا الصدد نضرب مثالاً عن مصدر معاصر إلى حدّ ما لأحداث الخلافة الراشدة وإلى عهد الخليفة الثاني وإلى حقبة فتوح مصر على وجه الخصوص، إنه تاريخ ألّفه أسقف مصري ربما عاش في مصر وهو يوحنا النيقي Johna Nikiu. فهو قد ولد زمن فتح مصر وترقّت به الاحوال إلى أن تولّى منصباً رفيعاً في سنة ٦٩٦م وهو مشرف على الأديرة المسيحية. وشهد يوحنا ذلك الإقبال الواسع على اعتناق الدين الإسلامي من قبل أهالي مصر، فلم يستطع إخفاء غضبه الشديد على هذه الحال فدوّن في تاريخه الذي يبدو أنه كان أصلاً باللغة القبطية ثم ترجم إلى اللغة الحبشية وبعدها إلى الإنجليزية واعتمد هذه الترجمة من قبل R.H Charles المرحوم الدكتور جواد علي.وقف يوحنا موقفاً معارضاً للإسلام وللنبي محمد شخصياً فأطلق لسانه المتحامل على الدين الإسلامي قائلا: ما ورد نصّا ((دين أعداء الله أو دين الوحوش The faith of beasts) ولكن يوحنا النيقي من جانب آخر يشير إلى النبي وإلى الموجة العارمة في اعتناق المصريين للإسلام ما نصّه ((وفي أيامنا هذه ارتد كثير من المصريين ممّن كانوا نصارى كذباً، فهجروا الديانة القويمة وتركوا التعميد ودخلوا في الإسلام دين أعداء الله... وقبلوا دين الوحوش دين محمد، وتعاونوا مع عبّاد الأصنام وحملوا معهم الإسلام وحاربوا النصارى)).

The Chronicle of John, Bishop of Nikiu (Translatated from English by R.H Charles (1916).

الدكتور جواد علي:- تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية) بغداد ١٩٦١، ص٢٠.

ويشير المستشرق ساندرز في كتابه (الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط) في أثناء تطرّقه إلى معركة إجنادين سنة ١٤هـ / ٦٣٥ إلى رواية معاصرة مصدرها أسقف نسطوري عبّر عن مشاعره إزاء المعاهدة التي أبرمها خالد بن الوليد مع أهالي دمشق

مشيراً إلى موقفه الشخصي من هذه المعاهدة بما ترجمته: - ((العرب الذين منحهم الله الهيمنة domimion أصبحوا سادتنا، لكنهم لم يحاربوا ضد الدين المسيحي، الأحرى أنهم كانوا يحمون عقيدتنا ويحترمون رهباننا ورجالنا القديسين، ويقدّمون الهدايا إلى كنائسنا وأديرتنا

John Nikiu, TheChronicle History of John, Bishop of Nikiu. See Saunders, History of Medieval Islam.

هاتان روايتان فقط كنماذج تشير إلى اعتراف بعض المؤرخين المسيحيين عن مدى واقعية الدين الإسلامي ومصداقية نبي الإسلام. فالبحث الدؤوب للردّ المباشر على مبالغات وطعون المستشرقين وشكوكهم ضدّ الإسلام ورسول الله وهي مكتوبة بلغاتهم الأصلية أو غيرها حال صحيّة ولازمة بالنسبة الينا لعرضها ليس تسويغا للدفاع بل وسيلة من وسائل البحث والتحليل العلميين.